٣ ـ ثقافة القناع... وقناع الثقافة

د. جمال الدين الخضور(*)

> ثمة دائماً قبل البداية بداية. وليكن ذلك شعارنا الفعلي، نحن رجال الفكر. وإذا كنا نريد شعباً مفكراً وأمةً ذاتاً، أمةً واعية وفاعلة، فلنبدأ بأنفسنا.
>
> **إلياس مرقص، العبودية (دار الحصاد، ص ٢٣)**

إذا كانت الثقافة مجموعة القيم الروحية والمادية الواسعة للكتلة الاجتماعية في لحظةٍ تاريخيةٍ معيّنة، فإنّ حركية الانتقال بين الأيديولوجي والمعرفي الثقافيّ تبقى خاضعةً لجملة من التراكمات البنائية المرتبطة بالتوضّع الإرادوي لمعرفة السلطة وممثليها المثقفين.

وإذا كان بعض المثقفين العرب يمثل بنية وسيطة للنظام العربي «الأوسلوي» السائد، إلاَّ أن البعض الآخر لن يكون بريئاً من وساطته لنظام العولمة الديناصوري (الغربي والإمريكي) ببنيته السائدة حالياً، وهي بنية إمبريالية مركزية تتوضع في دائرة التقاء مجموعة من محارق الدوائر الطرفية التالية. وبالتالي لا يجوز إطلاق صفة المثقف العضوي على ذلك البعض، لأن من أهم سمات المثقف العضوي الانخراط في الحفر والكشف والتأسيس المعرفي للمشروع النهضوي العروبي الذي تحدثنا عن بعض أهم خصائصه في دراستنا المنشورة في العدد ١٠ من مجلة **الآداب** والموسومة بـ«بيان الهزيمة... والخروج من غيبوبة التبعية». وهذا يعني في أحد ركائزه طبيعة الاشتغال على العلاقة مع الآخر، بحيث يجب التأكيد على أن «الآخر» هو أي مظهر ثقافي، أو عنصر ثقافي منتَج من قبل منظومةٍ ثقافيةٍ أخرى غير المنظومة الثقافية العربية.

وقبل البدء بذلك، لا بد من التأكيد أيضاً على أن «الآخر» لا يتضمن ما هو صهيوني يهودي. لأنَّ كل ما هو صهيوني ـ يهودي، هو أيديولوجي ـ سياسي، يتوضّع ضمن المشروع الصهيوني السياسي الهادف إلى سحق العرب واختراق تاريخهم ومستقبلهم وتحطيمه. وبالتالي، فهو متضمَّنٌ في حالة العداء الأبدي والتاريخي والإلغائي بين العرب والصهاينة. وكلمة «الآخر»، وإن تضمَّنت بعض نتاجات اليهود بانتماءاتهم القومية المختلفة والمتعددة خارج الكيان الصهيوني، فهي لا تتضمن قطعاً كلَّ ما له علاقة بالكيان الصهيوني كمشروع أيديو ـ سياسي، لا عبر تناقض المشروع العربي الحضاري النهضوي الممكن مع المشروع الصهيوني كبنية وهمية واهية نازية عنصرية، وما يعني هذا التناقض من صراع وجودٍ حتمي للطرف العربي وإلغاءٍ حتمي للبنية الصهيونية كتكوين سياسي فحسب، بل كذلك عبر ما يتركه هذا «الآخر» من حالة تلفيقية تزييفية صهيونية في العناصر المنتجة من قبل ذلك «الآخر».

وممّا هو جدير بالتوقف عنده، أنّ أدونيس في خواطره المنشورة في العدد العاشر من مجلة **الآداب**، لم يذكر كلمة «صهيوني» ولو مرة واحدة، ولم ترد كلمة صهيونية في خواطره تلك تلميحاً. حتى قد يخطر للقارئ بأنّه يتحدث عن ظاهرة ما، قبل القرن العشرين. ويبدو للمتلقي التوضعُ القصديُّ كذلك ضمن سياق مناقشة البنية المعرفية للديانة اليهودية في تأسيسها وجوهرها التيولوجي بعيداً عن أي تضمين أيديو ـ سياسي... علماً أن أيَّ دارسٍ لا يمكن أن يناقش حالة الصراع العربي ـ الصهيوني دون أن يحدّد البنية السياسية لما سمّاه أدونيس بـ«الدولة الإسرائيلية» كبنية صهيونية. ولا أقول بأن الصهيونية معزولة عن اليهودية، بل أقول بأنها نقلت الخطاب الديني اليهودي التاريخي بصيغته التيولوجية ـ بغض النظر عن التزييف التاريخي والجغرافي والمعرفي الذي يحمله ـ إلى الحالة الأيديولوجية محاولةً التأسيس «بعلمانية» تلفيقية لما يسمّى بالهويّة القومية اليهودية الإسرائيلية. وهو ما يعترف به كل مفكّري الكيان الصهيوني. يقول

(*) كاتب من سوريا. من كتبه: **رقصة العراة/** المجموعة (دار الحصاد، ١٩٩٤)، **الظلّ الدائري** (مكتبة ميسلون، ١٩٨٦)، وظهرت له مؤخراً عدّة كتب، منها ترجمة لكتاب يان ايلينيك **الفنّ في عهد الإنسان البدائي** (دار الحصاد، ١٩٩٤).

بنيامين بيت لحمي في كتابه **الخطايا الأصلية ـ تأملات في تاريخ الصهيونية وإسرائيل**:[١] «رفضت الصهيونية التخلي عن الهوية اليهودية والجماعة اليهودية ونسبتهما لنفسها مدعيةً حقَّها في التحدث باسميهما. كما طرحت تعريفاً جذرياً جديداً عن المقصود باليهودية والجماعة اليهودية. ومن الناحية الواقعية رفضت الدين بوصفه تعبيراً عن السلبية والجهل. لقد كانت الصهيونية تعبيراً عن عدم الثقة في الرب والمسيح ورسالته وتحقيراً لألفي عام من التقاليد».

ولا أعتقد بأن أدونيس نسي ذلك، بل تناساه، وتجنّب ذكر ذلك قاصداً، بهدف:

١ ـ طرح الإشكالية في الحوار بين المنظومة المعرفية العربية ككينونة أناسية تاريخية ذات هوية ثقافية مكتملة، وبين بنية «معرفية»/ يهودية/ لا تحمل التعبير الأيديولوجي السياسي، وهي ـ برأيه قائمة في

اليهود الذين عملوا في الحياة الثقافية العربية قديماً لم يكونوا جزءاً من مشروع صهيوني استعماري حديث!

التاريخ، تماماً كالبنية العربية، بهدف الإسقاط التأريخي وبشكل سلفيّ ميكانيكي، بدون أن يأخذ السياق التاريخي وعوامله المستجدّة بالاعتبار. فهو يقول: «ونحن نعرف أن الحوار بين الفكر العربي واليهود لم ينقطع على مدى التاريخ العربي، وقد بلغ ذروته في الأندلس. وإذا أضفنا إلى هذا الحوار الثقافي، الحوارَ الديني الذي أسس له القرآن الكريم، يمكن القول إن اليهود جزءٌ من تاريخنا، سلباً أو إيجاباً، وأن اليهودية، على هذا المستوى غير منقطعة عن المشكلات العربية». وهو هنا يهدر السياق بشكل كامل، ويقوم بإسقاط الشاهد على الغائب بآلية سلفية تغييبّية شاملة، لأنه أهدر البعد السياسي والأيديولوجي الذي تحدثنا عنه. وبالنسبة للواقعة التاريخية لم يضف أي شيء على الإطلاق؛ فأحمد أمين في كتابه **ظُهر الإسلام** الجزء الثالث ـ ص ٣٦ ـ يقول في وصفه لبنية الدولة العربية في الأندلس: «واشترك اليهود في الحياة الثقافية مشاركة فعّالة، وكانوا منبثين في طول البلاد وعرضها، ومنهم من اشتغل بالطب، ومنهم من أمسك مالية الدولة مثل حسداي بن شبروط الذي كان يسيطر على مالية الدولة في عهد عبد الرحمن الناصر، ومنهم من ارتقى إلى منزلة الوزارة مثل إسماعيل بن نغرلّة في ظل الأمير البربري حبّوس في غرناطة. وكان لليهود تأثير كبير في مساعدة بعض الأمراء وخذل بعضهم». لكن ذلك كان يحدث بشكل طبيعي في الدولة العربية. وهذا يعني أن البنية الثقافية العربية غير شوفينية وغير متحجّرة، وليست عنصرية. لكن، كيف نسقط هذا الشاهد القائم حالياً المطروح بأيديولوجية صهيونية عنصرية تقوم استناداً على بنية استعمارية استيطانية على ذلك الغائب الذي طُرح بسياقٍ تاريخي مختلف، حيث كان اليهود منتشرين كمواطنين في الدولة العربية. وهل كان المشروع الصهيوني في حينها قائماً؟!

لذلك قام أدونيس بوضع افتراضات خاصة ليصل إلى نتيجته تلك.

٢ ـ لم يكتفِ أدونيس بإلغاء الجانب التاريخي، بل قام بتحريف البنية الأيديو ـ سياسية إلى بنية معرفية من خلال عزل الكيان الصهيوني عن منظومة العولمة الإمبريالية ودوره فيها. وطرحَهُ، مع التواجد العربي، كتوضعات جغرافية تاريخية تحتاج للغة تعايش مشترك، يتحمل الطرف العربي المسؤولية بذلك... وكأن العرب هم الذين احتلّوا الأرض واستوطنوها، وقتلوا مئات الألوف وشرّدوا أكثر من أربعة ملايين إنسان وقاموا بمجزرة الحرم الإبراهيمي، وهم الذين سحقوا الأطفال في مدرسة بحر البقر، وفي صبرا وشاتيلا، وهم الذين ارتكبوا مجزرة دير ياسين وكفر قاسم... أو كأن العرب هم الذين يرتكبون المجازر اليومية في الجنوب اللبناني وفي فلسطين.

ولا بد أن يكون أدونيس، المقيم في باريس، ويتقن اللغة الفرنسية أكثر من العربية، قد قرأ الملف الخاص الذي نشرته مجلة **فرنسا والبلاد العربية** France - Pays Arabes الشهرية ـ عدد نيسان (أبريل) ١٩٩٤ في الصفحات ٩ ـ ١٠ ـ ١١ ـ ١٢ بقلم اليزابيت ماتيو «عن البنية العنصرية الصهيونية والأيديولوجيا اليهودية التزييفية والممارسات النازية للعدو الصهيوني على مدى الفترة الزمنية لقيام الكيان الصهيوني» حيث:

أ ـ تنقل المحررة عن أحد المؤرخين اليهود ـ الصهاينة تقييمه لأحداث ١٩٤٨، بعد أن سمّاها تطهيراً عرقياً بقوله: «كانت محاولة صعبة، ذات أهمية كبرى، لقلب الحقائق بالأساطير وبالدعاية المعدة لهذا الغرض من قبل إسرائيل وأنصارها بشكلٍ مطلق... وذلك بعد أن تذكر ما كتبه وايتز Weitz المسؤول في المكتب الوطني اليهودي في صحيفته عام ١٩٤٠: «ليس هناك من وسيلة أخرى، إلاّ بترحيل العرب إلى البلدان المجاورة، ويجب ألا تبقى قرية واحدة ولا أي تجمع آخر...»

ب ـ تورد على لسان ضابط صهيوني برتبة عقيد قوله في مقابلة أجريت معه بعد مجزرة الحرم الإبراهيمي: «الإجراء الاعتيادي لم يتغيّر مع مسيرة السلام: فهو يعتمد على سحق رؤوس هؤلاء العرب دون أي شعور بالذنب...» ويتابع بعد قليل: «ومن غير المسموح به إطلاقاً، وفي أية ظروف، إطلاق النار على اليهود، خصوصاً لأنهم يهود».

---

(١) نُشر في لندن عام ٩٢، وفي نيويورك عام ٩٣، وعرّب فصلاً منه هشام فؤاد عبد الحليم في سلسلة كتاب **قضايا فكرية** (عدد ١٣ ـ ١٤).

جـ - وعن طبيعة التفكير الصهيوني - اليهودي وموقفه من الشعب العربي وإمكانية قيام أي وحدة أو تقارب، خصوصاً بين مصر وسورية تكتب المحررة: «... ونجد في أرشيف الرئيس الأمريكي لندن جونسون تقريراً من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية مؤرخاً في نهاية عام ١٩٦٤ يعلن فيه ما يلي: «تأمل إسرائيل بإنشاء قوة عسكرية مستقلّة ورادعة كعامل حيوي لأمنها. ويتحدث الضباط الإسرائيليون بصراحة عن استراتيجيتهم الواسعة ضد الوحدة السورية المصرية: ١ - الهجوم على دلتا النيل بصواريخ أرض - أرض. و٢ - التهيؤ لتفجير سد أسوان، وذلك بالاستعانة برأس نووي، لأن رأساً واحداً موجهاً بشكل جيد يكفي ليرفع مياه النيل ٤٠٠ قدم، لتجتاح بشكل كامل الوادي الضيق، حيث تتواجد تجمعات السكان المصريين بأكملهم». هذا هو «الآخر» الأدونيسي. فكيف يحاول أدونيس أن يقارن بين موقف العرب التاريخي من اليهود، وموقف المشروع الصهيوني عبر كيانه الاستيطاني من العرب؟

٣ - حاول إخفاء رؤيته الأيديولوجية التغريبية وراء ستار من الحديث عن دور الثقافة المعرفي، بدون أن يتطرق إطلاقاً لإشكاليات السؤال التاريخي الذي يجب أن تتمحور حوله الحفريات الثقافية. فحاول أن يهاجم السلفية الدينية ومثقفي السلفية السياسية في بنية النظام العربي بآلية ميكانيكية سلفية أيضاً. فهو بالإضافة لإهداره لكل ما يتعلق بالمشروع الصهيوني وكيانه، يضع البنية المجتمعية العربية بتطابق كامل مع البنية المجتمعية للكيان الصهيوني. فهو يقول: «أظن أننا لا نجد مثقفاً عربياً حقيقياً يقيم تماهياً بين شعبه ونظامه السياسي. لذلك أفترض أن المثقف لا يمكن أن يقيم بين اليهود والنظام الإسرائيلي تماهياً...»

هل بنية «المجتمع» الصهيوني هي بنية مجتمعية بكل ما تحمل الكلمة من معنى؟

المثقف الصهيوني في «إسرائيل» - باستثناءات قليلة - متماهٍ مع السلطة السياسية فيها، وإلاّ لما كان هاجر من وطنه الأصلي إلى فلسطين أو الجولان!

هل هناك المقدمات النمطية - الاجتماعية وعلاقات الانتاج، وتجانس الجغرافية التاريخية، ووحدة التاريخ الجغرافي، ووحدة اللغة وغيرها من العوامل الواجب توفرها لكي يتمتع ذلك الكيان ببنية المجتمع؟

المجتمع الصهيوني ثكنة عسكرية، لا تفرضها طبيعة الكيان كبنية استيطانية عدوانية فقط، بل تفرضها العوامل البنائية لهذا «المجتمع». مجموعات من الصهاينة الململمة من كل أصقاع الدنيا ليس بينها أي تقاطع إلاّ الأيديولوجيا الصهيونية اليهودية مما يفرض بنية عسكرية خالصة. وهذا يعني التماهي الطبيعي بين قطعان الصهاينة ونظامهم السياسي، وبالتالي التماهي العضوي بين مثقفي هذا الكيان ونظامهم السياسي. وإلاّ لماذا ترك هؤلاء «المثقفون» أوطانهم الأصلية وهاجروا إلى فلسطين ليحتلوا بيتاً لعربيٍّ ما في فلسطين أو في الجولان بعد أن يقتلوا أو يقتلعوا أهله؟

لماذا ترك الروائي الصهيوني سامي ميخائيل (الكردي العراقي) بلاده واستوطن بيتاً عربياً في فلسطين بعد أن قتل أو هجّر صاحبه؟ وهو بانتمائه القومي كردي وبانتمائه الديني يهودي. وكيف تحاور أدونيس معه في «بيت الحكمة» في تونس؟

لذلك نلاحظ بأن التماهي موجود بين السلطة السياسية واليهود الصهاينة ومثقفيهم في الكيان الصهيوني، في حين أن هذا التماهي غير موجود بين الشعب العربي ونظامه السياسي الأوسلوي، لأن هذا النظام يشكّل أداة كيانية في يد مركز العولمة الإمبريالي، باتّجاه إحكام السيطرة الكاملة على البنية الطرفية، وخصوصاً إذا كانت ذات أهمية استراتيجية كالوطن العربي.

لذلك فالمثقف الحقيقي في الوطن العربي يميّز بين القاع الشعبي العربي المقموع والمغيّب وبين نظامه السياسي، ويؤكد على أن المشروع الصهيوني هو الناتج البنيوي الطبيعي لمنظومة العولمة الإمبريالية التي تتخذ من بنية النظام الصهيوني العربي الأوسلوي أدوات استمرار في الهيمنة، وتوظف التيارات الظلامية التغييبية الدينية للاستمرار في تغييب الجماهير. فلماذا يغيب عن ذهن أدونيس، ويحاول أن يغيّب في بياناته دائماً وفي خواطره وحواراته، العلاقة البنيوية والعضوية بين مراكز الامبريالية العالمية والكيان الصهيوني، ويغيب العلاقة الوظيفية بين هذه المراكز والنظام العربي الأوسلوي والتيارات الظلامية؟

يقول سمير أمين في حواراته مع حلمي شعراوي الصادرة عن دار كنعان - دمشق ١٩٩٤، ص ٨٣: «إذن إسرائيل ليست دولة، وإنما امتداد للاستعمار في المنطقة لا أكثر من ذلك. أقول هذا الكلام لماذا؟ لأن جزءاً كبيراً ومتزايداً من الرأي العربي وللأسف، بما فيه الرأي اليساري، وصل بالتدريج إلى أن اسرائيل تمثل مصالح معينة، وبالتالي عندها قدرة معينة على هامش معين من التحرك وقدرة معينة على التأثير في القرار بما يخص المنطقة العربية. طبعاً الرجعية العربية ركزت على هذه النقطة لتفصل بشكل اصطناعي اسرائيل عن أمريكا وتقول إن إسرائيل هي الآن التي تضغط على أمريكا، لا أن أمريكا هي التي تقرر. عندما تقرأ مذكرات نيكسون تجد وجهة النظر التي تبنّاها مكتوبة بشكل صريح واضح. نيكسون يقول: إن هذه الدولة بالرغم

من قوتها الظاهرة مهددة وليس لها مستقبل إلاّ أن نضمن نحن مستقبلها. ويقول ذلك صراحةً، أي أنه يكذب كلامَ الرجعية العربية التي تقول إن اللوبي الصهيوني هو [المسؤول]... وأنه يمكن أن نفصل بين المصالح الأمريكية والمصالح الإسرائيلية. هو نفسه - نيكسون - يقول إنه لا يوجد شيء اسمه المصالح الإسرائيلية. مصالحها مصالحنا، ونلعب مع العرب، نجعلهم يعتقدون في كثير من الأحيان أنها مبادرات إسرائيلية ثم نشكو نحن من هذه المبادرات بينما المبادرات منا نحن الأمريكان ونطلب من إسرائيل أن تقوم بها، وتقوم بها.... إذن:

١ - إسرائيل ليس لها مستقبل.

٢ - ليس عندها هامش، قوتها نتيجة ضعفنا لا أكثر من ذلك. ليست قوة في حد ذاتها».

ويقول سمير أمين في موقع آخر، ص - ٨٢: «الصهاينة أنفسهم، وهم في وضع أفضل مني، يفهمون تماماً أن المسألة لا تنحصر فقط في إقامة دولة إسرائيل، بل في استمرار هذه الدولة، الذي لا يمكن ضمانه إلا بالانخراط التام مع مصالح الاستعمار (١٠٠٪ وليس ٩٠٪) يوماً بيوم».

فكيف يمكن أن نفصل بين النظام السياسي في الكيان الصهيوني وبين مثقفيه؟ قد يكون هناك حالات فردية، لكنها نادرة جداً، ولا تشكل قانوناً عاماً يمكن أن يُناقش.

لذلك، يمكننا القول بأن مواجهة الكيان الصهيوني ومشروعه مرتبطةٌ جدلياً وعضوياً بحتمية فك الارتباط مع مراكز العولمة الامبريالية عبر مشروع نهضوي عربي شامل. والحروب التي خاضها العرب حتى الآن، لم تُخَضْ بظروف متكافئة استطاع القاعُ الشعبي أن يمتلك ولو في واحدة منها مقودَ الأمور. لذلك كانت خاسرة. فعن أي سلام ناقص يتحدث أدونيس حين يقول: «في ما يتعلق بي، أفضل سلاماً ناقصاً، على حرب توجّهها وتهيمن عليها أصولياتٌ تؤول الدينَ تأويلاً بعيداً عن حقيقته، ولا يمكن في الوقت نفسه إلاّ أن تكون حرباً خاسرة على جميع المستويات»؟

سبق أن ناقشنا واقع الاغتراب الديني الذي يعيشه مواطننا العربي، وهو الاغتراب الذي يتحمل المثقفون الوسطاء جزءاً كبيراً منه لأنهم انسحبوا في أحيان كثيرة إلى مواقع السلام الناقص أو الاستسلام مع كل أدوات الهيمنة ولم يحاولوا الحفر في الواقع والبحث عن أسباب الهزيمة.

ورغم ذلك يناقض أدونيس نفسه في موقع آخر حيث يقول: «فالثقافة كما أفهمها وأمارسها هي هوية الأمة وكيانها، ولهذا هي مسألة كيانية لا وظيفية. فالعرب هم بالنسبة إليّ كينونة ثقافية في المقام الأول. وظنّي أن الخطوة الأولى في الدور الذي يجب أن يلعبه المثقف العربي، في هذه المرحلة، هي أن ينظر إلى الثقافة العربية هذه النظرة - أن يرى إليها بوصفها تأسيساً، لا بوصفها إعلاماً». لكننا وانطلاقاً من تعريفنا للثقافة باعتبارها منظومة القيم الروحية والمادية الواسمة للمنظومة الأناسية التكوينية لشعبٍ ما، وبالرغم من أن الشقّ الروحي يملك حركية أوسع مما يملكه الشقّ المادي، إلاّ أنهما مرتبطان جدلياً وزمكانياً.... انطلاقاً من ذلك نلاحظ أن أدونيس أطلق على الثقافة تحديدات واشتراطات ثابتة (ستاتيكية)، فهي برأيه كينونة وتأسيس، وهذا ما يتناقض مع الثقافة كسيرورة تاريخية، لكنه ثبتها بالكينونة ليسقط الشاهد على الغائب، وليأخذ النموذج النمط خارج تاريخيته، كما فعل عندما أهدر الصهيونية من مشروع الكيان الصهيوني كاملاً، وطرحها كتأسيس، مسقطاً كل البنية الأناسية العربية التاريخية بعلاقاتها التكوينية مع احداثياتها التاريخية عبر تطورها وعلاقاتها بمنظومة العقل واللغة والفكر والواقع. فقادنا إلى تثبيت الهوية كمومياء لا تحمل في مواصفاتها أي شيءٍ من الحركية التاريخية.

لذلك ينطلق بسهولة لاعتبار «التطبيع الثقافي أُلهية جديدة للكتاب العرب، تبدد طاقاتهم عبثاً وتمزقهم» لأنه أسقط جوانب أساسية في تعريفه للثقافة. خصوصاً أن المقطع الآتي المناقش يفرض مجموعة من المقدّمات البنائية التي من الواجب التذكير بها:

١ - الثقافة العربية تعبر عن نفسها حالياً من خلال خطابين «ثقافتين»: ثقافة القاع الشعبي التي تحتاج إلى تفعيل مكوّناتها وإطلاقها باتجاه الامتلاك التاريخي النقدي للذات... وثقافة السمسرة - الوسيطة/الإعلامية والإعلانية/وهي سمسارة للنظام العربي الأوسلوي السائد، وسمسارة للمنظومة الأمبريالية (الأوروبية والأمريكية) وسمسارة لمظاهر فعله التغييبي الظلامي، والتغريبي، وتلتقي بسمسرتها الدونية الاستلابية التابعة مع الخط الأيديولوجي للمشروع الصهيوني.

٢ - التبعية الثقافية بصيغتيها/التغريبية السياحية، والطفيلية الداخلية/ تعبر عن علاقات مجتمعية، كما أسلفنا في تعريفنا للثقافة. وبالتالي لا يمكن تفعيل الثقافة الجماهيرية كبنية سيرورية إلاّ عبر تطوير عناصر الاشتباك التناحري التناقضي الإلغائي مع حوامل الثقافة التابعة، وهذا ما تفرضه الصيرورة اللاحقة لطبيعة الاشتباك الوطني.

٣ - تتداخل عناصر ثقافة الاغتراب السياحي (ثقافة تدمير الذات بتعبير الدكتور صبري حافظ) مع البنية الثقافية العامة. لذلك لا بد من تعريتها وكشفها وعزلتها، على طريق الامتلاك التاريخي النقدي للذات.

ذلك أن التمنيع الثقافي لا يحمل في داخله الانعزال، بل يحمل في داخله عناصر التطور السيروري. فالتفعيل لا يأتي عبر التناقض

التناحري مع المشروع الامبريالي وأدواته الصهيونية فحسب بل عبر كشف البنى الداخلية لثقافتنا وتطويرها أيضاً. وانطلاقاً من تعريفنا للثقافة نلاحظ بأن التمنيع الثقافي يحمل في داخله عوامل مقاومة التطبيع على كل المستويات. فالتطبيع الثقافي هو صهينة الواقع. ولقد امتطى وبكل جدارة ثقافة الاغتراب السياحية محاولاً صهينة المنطقة العربية.

فالتطبيع موجود، ودليله خطاب أدونيس في مؤتمر غرناطة، الذي ناقشناه في عدد سابق من **الآداب** ورحلة علي سالم إلى الكيان الصهيوني، ومرافقة يوسف السباعي لأنور السادات في زيارته إلى القدس، وزيارات أنيس منصور المتعاقبة، وآراء إميل حبيبي في كفاحه ضد العروبة[٢]، ونعيم تكلا الذي ينشر قصصه في الكيان الصهيوني ويقدمها له ساسون سوميخ، ووجود نبيه سرحان المقيم في الكيان الصهيوني منذ ١٦ عاماً وزيارة مدحت صالح الغنائية، ومرافقة مثقفي الاغتراب السياحيين لأدباء صهاينة معروفين بنازيتهم إلى بيت الحكمة في تونس لمناقشة «الإبداع الروائي والشعري العربي على مشارف القرن الحادي والعشرين» في الفترة بين ١٩ - ٢١ أيلول - سبتمبر - ١٩٩٤.. ولولا هذا الكم الضخم من مثقفي الصهينة - التطبيع - لما وجد السياسيون الأوسلويون غطاءً ثقافياً إعلامياً في الانخراط الأعمق بالسلام الناقص - الاستسلام.

فالتطبيع السياسي والإعلامي والاقتصادي والسياحي يبقى محدوداً وقزماً بوجود التمنيع الثقافي.

وعندما يقولون عن التطبيع بأنّه ألهيّة، فلكيْ يبرروا الصهينة، ويعتبروها المسار الطبيعي الذي يقود إلى تطويع المنطقة العربية وإلى الأبد بعد صهينتها، وإبادة العرب ثقافياً وبيولوجياً، لأن ذلك يعني اختراق الهوية كسيرورة تاريخية، مميزة بمنظومة خاصة سيكيولوجية ومخيالية ولغوية ووطنية وجغرافية تاريخية وتاريخ جغرافي... وأزعم أن ذلك يعني الكرامة الوطنية والشخصية.

وأزعم أيضاً أن الكرامة هي ما يميز الإنسان الحقيقي عن الخنازير.

لذلك لا أرى بأن أي عربي، باعتباره إنساناً حقيقياً، سيقف معادياً لليهود إذا قبلوا الحياة المشتركة في دولة ديمقراطية عربية في فلسطين علمانية مستقلة أو تشكل إقليماً من دولة عربية وطنية واحدة. وقد قلنا أكثر من مرّة، بأن انقاذ هويتنا وموقعنا التاريخي مرتبط بإنجاز المشروع النهضوي العربي، والهادف إلى حل المسألة الوطنية عبر الدولة الوطنية العربية الواحدة، والمستند على نقطتي تأسيس: أولاهما أن هويتنا القومية منجزة تاريخياً، أمّا هويتنا الوطنية العروبية فهي السيرورة الواجب إنجازها عبر المشروع النهضوي القادر على حل إشكاليات اليهود وغيرهم ضمن دولته العربية الديمقراطية العلمانية المنشودة.

سوريا، حمص

(٢) يُرجى مُراجعة توضيح الأستاذ حبيبي على هذه النقطة في آخِر هذا العدد من المجلة (هيئة تحرير **الآداب**).